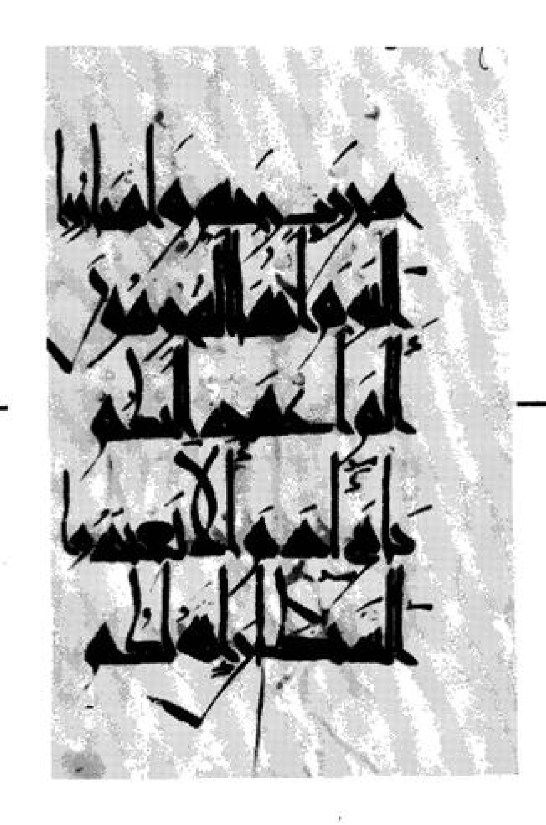
دراسة



# المخطوطات التونسية وصيانتها

بقلم: محمد أبو الاجفان

جامعة الشريف الادريسي هي جامعة حرة مفتوحة أعلن الأمير محمد ولي العهد بالمملكة المغربية عن تأسيسها في أوت سنة 1987 .

وتبنى اقليم الحسيمة الريفي هذه الجامعة ، وهو يقع في شمال المملكة على البحر الابيض المتوسط ، وبه جبال عالية وتضاريس وغابات .

وتهدف هذه الجامعة الى طرق موضوعات تهم البلدان المتوسطية والى توفير فرص لقاء بين الباحثين والدارسين المتوسطيين .

وكانت الدورة الاولى في صائفة 1988 والثانية في صائفة 1989 والأخيرة ذات ندوتين ، تناولت اولاهما موضوع : التراث المعماري في البيئة المتوسطية وانعقدت من 8 الى 21 سبتمبر 1989 ؛ وتناولت الثانية موضوع : صيانة التراث المخطوط المتوسطي ؛ وانعقدت من 25 الى 28 سبتمبر 1989 . وحضرها باحثون مهتمون بالمخطوطات من : المغرب والجزائر وتونس وفرنسا ، وايطاليا ، واسبانيا ، والأردن وسوريا وفلسطين .

وقد قدم خلال هذه الندوة الاستاذ محمد أبو الاجفان مداخلة بعنوان : المخطوطات التونسية وصيانتها

إن اهتمامنا المشترك بالرصيد الموروث من المخطوطات في شتى الفنون ، ليرجع الى تاريخ قديم كان أجدادنا فيه مولعين بالكتب ، حريصين على تدوينها وجمعها ، وكان الطلبة والعلماء منهم مقبلين على دراستها ، يرحلون في سبيل أخذها عن المشيخة من مؤلفيها ، أو ممن لهم سند إلى مؤلفيها ، اذ بلغ التحري والدقة والضبط عندهم الى حد المحافظة على سند الكتاب ، واعتبار هذا السند بمثابة النسب .

وهذا التحري كان من الحوافز التي دفعت الى خوض مجال تأليف نوع من المصنفات يعرف بالفهارس أو

الاثبات أو البرامج ، وكذلك خوض مجال تدوين الرحلات العلمية ، فظهرت كثير من المؤلفات في أدب الفهارس وأدب الرحلات ، كانت من أهم مصادر التاريخ الثقافي ، إذ سجلت الحركة العلمية ونشاط الطلبة وأسماء شيوخهم وعناوين الكتب المدروسة ، وقد أعطت هذه الكتب دلالة قوية على ما كان مصنفوها يتحلون به من الأمانة العلمية ، والاهتمام البالغ بالعلم وأهله ، والرغبة الصادقة في نشره ، والعناية التامة بمدوناته ووثائقه .

وقد كان المترجمون ينوهون بمن كان من العلماء مهتما بضبط الكتب ومقابلتها مثل أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي ( ـ 749 ) وهو شيخ العلامة عبد الرحمن بن خلدون ( ـ 808 ) الذي ترجم له ونوه بعنايته بضبط الكتب فقال : ( كانت بضاعته في الحديث وافرة ، ونحلته في التقييد والحفظ كاملة ، كانت له خزانة من الكتب تزيد على ثلاثة آلاف سفر ، في الحديث والفقه والعربية والأدب والمعقول وسائر الفنون ، مضبوطة كلها مقابلة ولا يخلو ديوان منها من ثبت بخط بعض شيوخه المعروفين في سنده الى مؤلفه ، حتى الفقه والعربية الغريبة الاسناد الى مؤلفيها في هذه العصور )[1]

إذن فقد انصب الاهتمام على الكتب العلمية ، وتجلى الاقبال على المشيخة ، وظهر الحرص الشديد على الاستكشاف منها ، لما لذلك من الأثر في تكوين الملكات العلمية وترسيخها ، وبالنسبة لأثر الأخذ المباشر في التكوين يقول ابن خلدون : ( إنّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا ، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها )[2] .

وقد أتاحت لنا كتب الفهارس والبرامج أن نعرف شيوخ مؤلفيها وشيوخ شيوخهم ، وما نقلوا عنهم من الآثار والأحاديث والمدونات العلمية وان نقرأ تراجم كثير من الأعلام ، ونرى دورهم في التيار الثقافي والنشاط العلمي وأثرهم في الخطط التي أسندت إليهم ، وعلاقتهم بالحكام ، وصلاتهم بأقرانهم ونظرائهم المنتشرين في سائر الأمصار .

• ان شغف أعلام فردوسنا المفقود بتدوين الفهارس والبرامج لا يضاهيه إلا شغف أعلام هذا المغرب بهذا الصنف من المؤلفات الهامة ، وقد أتيح لي ان أعاشر بعضهم من خلال فهارسهم[3] ورحلاتهم[4] ، فعرفت فيهم الهمة العلمية والتفاني في دراسة العلم وأخذ الكتب ، والتهامها قراءة وربطها أحيانا بالسند الى المؤلف .

من أروع الأمثلة التي توضح هذه الهمة العلمية التي لم تفتر في أحلك فترات تاريخ هذا الفردوس المفقود ، مثال فهرس[5] محمد بن عبد الملك المنتوري القيسي الأندلسي[6] ( ـ 834 ) فقد درسته وعددت كل نوع من الكتب التي قرأها وربط صلته الى مؤلفيها بحلقات سلاسل ، تبدأ بشيوخه وتنتهي إلى المؤلفين ، فخرجت بالاحصائية الطريقة التالية :

- كتب علوم القرآن على اختلافها : 98 .
- كتب الحديث وعلومه : 43 .
- كتب فنون مختلفة كالتصوف والعقيدة : 26 :
- كتب الفقه وأصوله : 25 .
- كتب الفرائض : 4 .
- كتب النحو : 13 .
- كتب الادب : 14 .
- كتب الفوائد : 20 .
- كتب الطبقات : 8 .
- الرحلات وبرامج الشيوخ : 31 .

الجملة : 282 .

اثنان وثمانون ومائتا عنوان سماها بمؤلفيها وأسانيدها ، ثم سمى اسماء مؤلفين قرأ كتبهم دون ان

يذكرها ، ولاشك أن عدد تأليف كل مؤلف تختلف وتكون عديدة بالنسبة للمكثرين منهم . وعدد هؤلاء المؤلفين الذين قرأ المنتوري كتبهم بلغ 619 ولا تعجب لهذه الأرقام فهي ليست قياسية ، اذ يوجد في المغرب من تجاوزها في عصرنا الحاضر ، وهو العلامة الشيخ عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني ( - 1963 م ) ، صاحب فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات[7] .

ولنصور أيضا مدى عناية علماء هذه المنطقة المغربية - الأندلسية بالكتب نذكر بعض ما أشارت اليه عرضا واستطرادا كتب التراجم :

نبدأ بأندلسي من علماء التفسير والقراءات والحديث والفقه والأصلين واللغة وهو العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد المعروف بابن ابي الفضل المرسي السلمي .

ولد بمرسية سنة 569 وسمع بالمغرب من جماعة ثم بمصر وسمع منه الحفاظ والأعيان من العلماء ، وبالغوا في الثناء عليه . قال عنه المحب الطبري : ( الشيخ الفقيه ، الامام العالم الزاهد ، المحدث المسن فخر الزمان ، علم العلماء زين الرؤساء امام النظار ، رئيس المتكلمين ، أحد علماء الزمان المتصرف أحسن التصرف في كل فن . أصله من مُرسية من بلاد الأندلس ، لم يزل مشتغلا من صغره إلى كبره ، وله المباحث العجيبة والتصانيف الغريبة ، وجمع الاقطار في رحلته ، ارتحل إلى غرب بلاده ، ثم إلى الاسكندرية والديار المصرية ، والشام ، والعراقين . ودخل بلاد العجم ، وناظر ، وقرأ وأقرأ ، واستفاد وأفاد . ولم يزل يقرىء ويدرس حيث حل ، ويقر له بعلمه وفضله كل محل ، ثم قال : وجاور بمكة سنين كثيرة )[8] .

أبو الفضل المُرسي هذا كان رُحلة ، وكان يحتاج الى كتب في البلاد التي يحل بها للقراءة والتدريس والتأليف ، ورحلاته لم تكن توقف نشاطه العلمي ، مع هذا لم يكن يحمل معه كتبا إلى البلاد التي ينزل بها ، ولا يستصحب مؤلفات في سفره ، لأن له كتبا على ملكه الخاص ، ووضع نسخا منها في كل مركز يقصده وفي كل بلد يسافر إليه .

ولا تتصوروا ان مكتبته في كل مركز تشتمل على عدد قليل من النسخ ، فقد حدثونا عن مكتبته التي بدمشق ، فقالوا : بعد موته رسم السلطان ببيعها ، فكانوا في كل ثلاثاء يحملون منها جملة الى دار السعادة ، ويحضر الفقهاء ، ( فاشترى البادرائي منها جملة كثيرة ، وبيعت في نحو من سنة ، وكانت فيها نفائس ) وكان ثمن هذه الكتب باهضا[9] .

وقد توفي صاحبنا في النصف من شهر ربيع الأول سنة 655 بين الزعقة ، والعريش من منازل الرمل ، وهو متوجه من مصر الى دمشق .

وننتقل الى القيروان في القرن الرابع الهجري ، عندما كانت الحركة العلمية دائبة بها وهي ، اذ ذاك ، القلب النابض لمغربنا العربي ، تستقبل طلبة من المغرب والاندلس ، ويعيش بها أعلام يثرون الثقافة الاسلامية ويصنفون في شتى الفنون ، أمثال مالك الصغير أبي محمد عبد الله بن أبي زيد **القيرواني** ( - 386 ) .

كان في القيروان اذ ذاك أبو اسحاق عبد الله بن مسرور ( - 346 ) أحد شيوخ ابن أبي زيد المذكور ، معتن بتدوين الكتب وضبطها ، قال قرينه أبو الحسن القابسي[10] : بلغت كتبه التي كانت بخطه سبعة قناطير . لما اشتد به المرض اقترح عليه أصحابه ان يحبس كتبه ، حتى لا يستولي عليها السلطان الشيعي بعد وفاته ، فقام بتوزيعها أثلاثا ، وكان أحد الأثلاث من نصيب تلميذه عبد الله بن أبي زيد ، ولم يلبث ان أصاب ابن مسرور أرقٌ لمفارقة كتبه ، اذ لم يتحمل بعدها ، وهو معتاد الاغتراف منها دوما ومعاشرتها كل يوم ، فأمر باستردادها فرد الثلثان ، وفاضت روحه الى بارئها قبل رد الثلث الذي كان في دار عبد الله بن أبي زيد ، ولم يسلم

من السلطان العبيدي الا هذا الثلث الذي تحت يد مالك الصغير ، أما الثلثان الآخران فقد استولى عليهما هذا السلطان[11] الذي ابتلى السنيون بحكم دولته في عهد قاس ناوأ فيه العبيديون الاتجاه السني بوسائل مختلفة ، منها منع الكتب السنية ، ومحاولة حمل الناس على اتباع مذهبهم .

وما هذه الا إحدى الفتن التي ابتلي فيها الكتاب الاسلامي بتونس عبر تاريخها ، والحمد لله ان خرجنا سالمين من هذه الفتن ، وبقيت بمكتباتنا مجموعة هامة من المخطوطات نتحدث عنها اليوم بالاعتزاز الكامل .

هذا وان مما يسر سلامة كثير من موروثاتنا المخطوطة مؤسسة الحبس التي قامت بدور هام في المحافظة على ثروة المخطوطات ، فقد كان المحسنون يحبسون الكتب رغبة في نشر العلم ورجاء في الثواب المتواصل بعد الموت ، ويقتضي تشريع الوقف في فقهنا الاسلامي منع بيع الموقوف ، وحبس منفعته على المحبس عليهم ، ويكلف ناظر الحبس والقاضي بالمحافظة على الكتب الموقوفة وتنفيذ شروط المحبس ، ويضاف الى هذا الاجراء الحُرمة التي تكتنف كل شيء وقع تحبيسه ، فتتظافر بذلك بعض عوامل السلامة للمخطوطات .

وقد حدثنا الرحالة المغربي أبو عبد الله محمد العبدري الحيحي صاحب الرحلة الشهيرة التي بدأها سنة 688 هـ عن زيارته لجامع عقبة بن نافع بالقيروان فقال : ( دخلنا دار الكتب فأخرجت لنا مصاحف كثيرة بخط مشرقي ، ومنها ما كتب كله بالذهب ، وفيها كتب محبسة قديمة التاريخ من عهد سحنون وقبله ، ومنها موطأ ابن القاسم وغيره ) .[12] . كما عرفتنا فهرسة الشيخ محمد طراد القيرواني للمكتبة العتيقة بالقيروان[13] بأوقاف الكتب على مكتبة جامع عقبة بن نافع عبر القرون ، ومن ذلك تحبيس الامام أبي القاسم السيوري في السنة التي توفي فيها 462 هـ . تحبيس الامام قاسم بن عيسى بن ناجي المتوفي سنة 835 هـ ، وقد أشهد العدول على تحبيسه بتاريخ 7 رجب سنة 828 ، وكان ضمن الكتب المحبسة مؤلفاته : الشرح الكبير على المدونة ( 11 سفرا ) والشرح الصغير عليها ( سفران ) وشرحه على تفريع ابن الجلاب (سفران) وشرحه على رسالة ابن أبي زيد القيرواني[14] . كما حبس الامام ابن ناجي أموالا على من يقوم بنسخ مؤلفاته ومقابلتها وتسفيرها لتودع بخزانة جامع الزيتونة بتونس[15] .

وقد تواصلت حركة تحبيس الكتب من أهل الخير والاحسان على خزائن المدارس والزوايا والجوامع عبر العصور ، كما تشهد به نصوص الوقف التي تضمنتها هذه الكتب ، وكما سجله مؤرخو الحركة العلمية مثل المؤرخ محمد بلخوجة الذي استعرض في تاريخه لخزائن الكتب بجامع الزيتونة أسماء ثلة من المزودين لها بأنفس المخطوطات ، ومنهم القائد ابراهيم بن عباس الرزقي والشيخ المختار بن عمر قبادو الشريف[16] .

## المخطوطات التونسية في العهد الحاضر

كانت المخطوطات بتونس في عهد الاستعمار موزعة بين خزائن جامع الزيتونة وبعض المساجد والزوايا والمتاحف والبيوت الخاصة والمكتبات العامة .

وبعد الاستقلال أخذت الحكومات الوطنية تبدي عناية بها ، حتى تسلم من التلاشي والاندثار .

وكانت الخطوة الأولى في سنة 1961 حيث وقع نقل مخطوطات خزائن المكتبة العبدلية من جامع الزيتونة الى دار المعلمين العليا بتونس التابعة للجامعة التونسية .

وهذه المكتبة العبدلية قديمة أنشأت في العهد الحفصي على يد الأمير أبي عبد الله محمد بن الحسن بن مسعود بن عثمان ( 899 ـ 932 ) وانتصبت في الرواق الشرقي بجامع الزيتونة ، وأشرف عليها قيمون مكلفون بها وهي تضم كذلك كتبا أحدث خزانتها جد الأمير المذكور عثمان بن محمد بن أبي فارس الحفصي[17] ( 839 ـ 893 ) .

ثم كانت الخطوة الثانية في سنة 1963 حيث انضمت

الى هذه المكتبة مكتبة الشيخ محمد رضوان المفتي الحنفي وهي ذات مخطوطات نفيسة بعضها موروث عن أبيه المفتي ، وقد تفضل باهدائها إلى الدولة التونسية .

اما الخطوة الثالثة فكانت في سنة 1967 حيث صدر أمر جمهوري لتجميع المخطوطات الموزعة بين المساجد والمتاحف والزوايا ؛ وبمقتضى هذا الأمر جمع عدد وافر منها .

وأما الخطوة الرابعة فكانت في السنة الموالية 1968 حيث صدر قرار رئاسي يقتضي الحاق كل المخطوطات التابعة للمكتبات العامة بدار الكتب الوطنية بالعاصمة .

ومقرها الحالي بسوق العطارين قرب جامع الزيتونة المعمور ، كان في الأصل ثكنة للجيش الانكشاري انتهى بناؤها سنة 1813 في عهد الأمير حمودة باشا ثم استعملت سجنا في عهد الحماية من سنة 1895 إلى 1906 ومنذ سنة 1910 أصبحت مقرا لهذه المكتبة .

وعندما سلمت المكتبة الى الحكومة التونسية المستقلة كانت تضم أربعين ومائتين وألف كتاب ، تمثل الكتب العربية منها نسبة السدس فقط . ولا عجب في ذلك فهي مكتبة استعمارية ذات صبغة خاصة معروفة . ولم يكن لحفاظها اهتمام بالمخطوطات العربية ، وقد دلت على ذلك احصائية سنة 1921 التي أثبتت أن هذه المخطوطات لم تتجاوز الواحد والعشرين[18] أما في بداية عهد الاستقلال فرصيدها من المخطوطات حوالي أربعة آلاف .

وهذا هو المعروف اليوم برصيد الوطنية ، وقد أثرى بالاقتناء ، وإلى جانبه مجموعات المخطوطات التي آلت الى دار الكتب الوطنية في أعقاب الأمر الرئاسي الصادر سنة 1968 وهو الذي أشرنا إليه فيما سلف .

وأهم هذه المجموعات هي التي كانت متأتية من المكتبات التالية : العبدلية ـ الأحمدية ـ الخلدونية ـ المكتبة العتيقة بالقيروان[19] متحف الجلولي بصفاقس[20] الكاف .

ويضاف الى ذلك المجموعات التي تم الحصول عليها بالشراء مثل مكتبة الشيخ القلعي[21] ومكتبة محمد بلخوجة[22] .

كما يضاف ما آل الى دار الكتب بالتبرع ، وأهمه مكتبة المؤرخ الباحث الشهير حسن حسني عبد الوهاب[23] .

وبذلك اصبحت مخطوطات دار الكتب تقدر بخمسة وعشرين ألفا .

## مخطوطات مركز دراسات الحضارة الاسلامية :

يقع مركز دراسة الحضارة الاسلامية بقصر رقادة وهي ضاحية لمدينة القيروان ، وقد نقلت إليه المخطوطات التي كانت بالمكتبة القيروانية العتيقة ثمآلت الى دار الكتب . نقلت إلى هذا المركز في ديسمبر 1983 ، بعد ان صدر قرار رئاسي في 1982/9/11 يقتضي ذلك .

ومجموعة هذه المكتبة تتكون مما عثر عليه بمقصورة جامع القبلية من مصاحف ترجع إلى القرون : الثاني والثالث والرابع والخامس ، وكلها على الرق وتمثل تطور المصحف فنيا في العهود القديمة ، كما تتكون من كتب فقهية تعتبر دواوين المالكية الأولى مثل المدونة والواضحة وجامع ابن وهب . . . . ومن عدد من الوثائق والعقود المتعلقة بالقيروان وأهلها ، ترجع الى القرنين : الخامس والسادس ، ويقوم فريق من الباحثين باستجلاء محتوياتها وتوثيقها واجراء دراسات لمواد المخطوطات ، وأخبارها .

وفي هذا المركز توجد مجموعة اخرى من المخطوطات ، هي التي جمعت في أوائل هذا القرن الميلادي وأودعت بخزائن صدر بها جامع عقبة ، وهي متفاوتة الأهمية وأغلبها من مكتبات بيوت علمية مثل مكتبة الشيخ الجودي[24] .

ومكتبة عظوم[25] وتتكون هذه المجموعة من زهاء خمسة آلاف مخطوط يتصل أغلبها بالفقه المالكي . وقد

قامت لجنة من الأساتذة بفهرسة أغلب مخطوطات هـذا المركز .

## مخطوطات جامعة الزيتونة

تتوفر بمكتبة جامعة الزيتونة مجموعة من المخطوطات أغلبها أصول وباقيها مصورات على الورق تبلغ هذه المجموعة 235 مخطوطا في فنون مختلفة ، وهي ذات أهمية متفاوتة . وقد ضبطت في قائمة تشمل باقتضاب العنوان والمؤلف والناسخ وتاريخ النسخ مع رقم المخطوط بالمكتبة وهذه القائمة متوفرة لرواد المكتبة . والمصورات تحمل أرقاما من 142 والى 233 وقد أهداها في رمضان 1405 الطالب العراقي نجم عبد الرحمان خلف الذي تخرج بالدكتوراه سنة 1986 ، كان قد إنتقاها من مكتبات مصر .

وتمثل هذه المصورات خمسي مجموعة مخطوطات مكتبة جامعة الزيتونة .

## المكتبات الخاصة

تمتلك كثير من الأسر العلمية بالعاصمة وسائر المدن التونسية مكتبات تضم مخطوطات متفاوتة الأهمية ، ولئن حافظ بعضها على هذه المخطوطات باعتزاز وافتخار ، فان أغلبها فرط فيها بطرق مختلفة أسوأها طرق من جهل قيمة ما ورثه ولم يقدر أهمية التراث الذي وصل الى يده ، ومنهم من كان يلجأ إلى البيع[26] في الأسواق أو الى الخواص أو الى دار الكتب . وكانت المدرسة الباشية قرب جامع الزيتونة في أوائل القرن الرابع عشر هـ سوقا نافقة للكتب ، ثم صارت تباع في السوق المجاور لها بالمزايدة ، وبالبيع زودت مكتبات خاصة بالمخطوطات ، وتسربت بعض المخطوطات إلى خارج البلاد ، أما ما اشترته دار الكتب الوطنية[27] فقد سلم من الضياع والتسرب وانضم إلى الرصيد العربي بها .

والواقع انه يعسر الحديث عن المكتبات الخاصة بتونس في وضعها الحالي ، فهي ليست مفتوحة أمام العموم للاستفادة منها ، باستثناء مكتبة ابن عاشور ومكتبة الشيخ الشاذلي النيفر التي تجرى الآن فهرستها ، وهناك بعض المالكين لمجموعات من المخطوطات تسمح نفوسهم الطيبة باطلاع الباحثين عليها مثل الأستاذ أبي القاسم محمد كرو الباحث المؤرخ الذي اطلعني على قائمة مخطوطات مكتبته ، فإذا هي تضم قرابة المائة في فنون مختلفة ، وقد اتخذ لها مقرا بشارع دي غول في قلب العاصمة ، ومثل الشيخ الطيب بسيس القاضي الذي أفادني أن له مخطوطات في الفقه وعلوم العربية والعلوم الصحيحة والرياضيات والفلك وهي بمنزله الكائن بضاحية مونفلوري .

ونعود الى المكتبة العاشورية لنذكر ان أصلها للوزير الشيخ محمد العزيز ابن محمد الحبيب بوعتور ، المولود سنة 1824 تخرج على اعلام جامع الزيتونة في عصره ولازم المشير احمد باشا وتولى مناصب سامية في الدولة وخططا وزارية وأسهم مع خير الدين في حركته الاصلاحية ، وكان يتمتع بعلم واسع واخلاق سامية وتوفي سنة 1907 بقصر سكناه بالمرسى[28] وهو القصر الذي نشأ فيه حفيده العلامة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور . وتأوي اليوم غرفة كبيرة من هذا القصر المكتبة العاشورية التي نمى ثروتها من المخطوطات الشيخ محمد الطاهر وابنه العالم الشيخ محمد الفاضل . وقد نص النظام الداخلي لهذه المكتبة على فتحها أمام الباحثين الحاصلين على استرخاص من دار الكتب وآل ابن عاشور يومي الثلاثاء والخميس من كل اسبوع ، ويوجد بها فهرس على الجذاذات مرتب على المواضيع وعلى العناوين وعلى المؤلفين ، وله نظير بدار الكتب الوطنية .

وأما مكتبة شيخنا محمد الشاذلي النيفر فهي من أهم المكتبات الخاصة اليوم بتونس وهي تجمع بين مكتبة والده

القاضي محمد الصادق النيفر[29] وما جمعه فضيلته من الكتب ويبلغ المجموع 18000 عنوانا منها 1600 مخطوطا ، وتجرى الآن فهرسة كل المحتويات لتستقر بالمقر الجديد الذي بناه الشيخ محمد الشاذلي بجوار مسكنه الكائن بنهج القرجاني في العاصمة .

وقريبا تفتح هذه المكتبة أبوابها لاستقبال الباحثين حاملة اسم « المكتبة الاسلامية ، مكتبة الشيخ الامام محمد الصادق النيفر ) .

ومخطوطات هذه المكتبة النيفرية أغلبها لم يطبع ، منها نفائس قديمة يحمل بعضها الاجازات والسماعات .

## صيانة المخطوطات التونسية

لما كانت المخطوطات عرضة للتلف والاندثار ، وحتى للسرقة والنهب والتسرب خارج بلادها الأصلية ، كان الواجب القومي أن تتم العناية بها ، وأن تُحظى بالتشريع الذي يدفع عنها الغائلات ، ويمنع عنها سطوة العبث والأيادي الآثمة ، وان تقام لها الورشات التي تتوافر فيها الوسائل الحديثة والأصابع الفنية الحاذقة لترميمها ، حتى تمتد حياتها أطول فترة ، وتتوارثها الأجيال فينكب على دراستها المختصون منهم وتكون لهم مصادر ثرية في عدة مجالات علمية ، ومنها ما يبقى تحفا نادرة مرتبطة بذكريات تاريخية ، أو آثارا لما أنشاته يد الانسان قديما .

وبالنسبة للجمهورية التونسية فانها تتجه الى المحافظة على الوثائق والمخطوطات سواء منها ما كان علميا أو اداريا ، وتحسس وزارة الثقافة والاعلام بقيمة ما بيد الخواص منها ، حتى يسعوا في المحافظة عليه ، كما كان يسعى بعض الاجداد للمحافظة على المخطوط فيصلحون ، من شأنه بما توفر لديهم من وسائل وامكانيات ، اذ تدلنا على ذلك كثير من النسخ القديمة قاوم بعضها بذلك التقلبات الطبيعية فوصلنا على حالة مناسبة ، وبعضها أساء إليه الاصلاح العشوائي فطمس بعض أوراقه .

واتجاه الحكومة التونسية إلى العناية بالوثائق والمخطوطات نابع من تقديرها لأهميتها وقيمتها ، وإيمانها بالواجب الأكيد نحوها .

ويتجلى هذا الاتجاه في عدة مظاهر :

منها المصادقة على الاتفاقية الدولية الخاصة بحماية التراث العالمي الثقافي والطبيعي التي وافق عليها المؤتمر العام لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة المنعقد بباريس من 17 اكتوبر الى 21 نوفمبر 1972 وكانت هذه المصادقة بالمرسوم عدد 13 لسنة 1975 ، المؤرخ في 24 اكتوبر 1974 .

ومنها أنها أوكلت الى عدة مؤسسات ثقافية وادارية ضمن مشمولات اعمالها العناية بالمخطوطات ، وأصدرت في ذلك تشريعا منظما لهذا المجال .

ففي نطاق الوزارة الأولى مركز مهتم بأرشيف الحكومة ووثائقها وهو غني بوثائق العهد التركي وعهد الحماية الفرنسية ، وتجري الآن حركة دائبة لتنظيم هذه الوثائق وترتيبها وصيانتها .

وفي نطاق وزارة الثقافة والاعلام تعددت المؤسسات التي تمثل العناية بالمخطوطات جانبا من مشاغلها ، نذكر منها المعهد القومي للآثار والفنون بتونس ، وفي نطاقه ينشط مركز دراسة الحضارة الفينيقية الواقع بقرطاج وقانونه الأساسي صادر في 12 فيفري سنة 1982 . وفي نطاقه أيضا نشطت ادارة جامع الزيتونة والمعالم الدينية والتاريخية بمدينة تونس ، ومن مهام هذه الادارة : ( جمع ودراسة وصيانة الوثائق المتصلة بتاريخ هذه المعالم كما نص على ذلك قانونها الأساسي الصادر سنة 1982 .

وبمقتضى الامر عدد 269 ، المؤرخ في 12 فيفري 1982 أحدث ضمن المعهد القومي للآثار والفنون مركز دراسة الحضارة والفنون الاسلامية برقادة ( احدى ضواحي القيروان ) ونص ـ ضمن أعماله ـ على ما

يلي : ( يختص بالجمع والصيانة والدراسة لوثائق القيروان المخطوطة والمكتوبة بما في ذلك وثائق الملكيات القديمة والاوقاف والمحاسبة والمصنفات المتصلة بالحياة الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية للقيروان ) .

وفي ديسمبر 1983 ألحق بهذا المركز ادارة شؤون جامع الزيتونة المذكورة اعلاه ، ومركز الدراسات الاسبانية والاندلسية الذي كان أحدث سنة 1973 .

ويضم مركز دراسة الحضارة والفنون الاسلامية برقادة مخبرا عصريا يعمل فيه فريق من المختصين في الصيانة على ترميم وثائق نادرة مكتوبة على الرق الثمين ، وفي هذا المخبر آلات عصرية وخبراء من المانيا يدربون بعض المتربصين التونسيين ، وذلك في نطاق التعاون مع احدى الجامعات الألمانية .

وفي اوائل سنة 1983 احدث مركز تاريخ الحركة الوطنية ضمن المعهد القومي للآثار والفنون ، وكان من مهامه ( جمع ودراسة وصيانة الوثائق المتصلة بتاريخ الحركة الوطنية ) كما جاء في الأمر الرئاسي الصادر في 1983/1/8 .

وأما المؤسسات التابعة مباشرة لوزارة الثقافة واوكل اليها ـ ضمن مشمولات أنظارها ـ أمر المخطوطات ورعايتها : فهي :

(1) ادارة الآداب والنشر ، فقد جاء في قانونها الأساسي ان من مأموريتها ( السهر على تكوين المحفوظات الادبية التونسية والحفاظ عليها ) ( الدليل الثقافي ص 22 ) .

ومن المصالح التابعة لها : ( الادارة الفرعية لصيانة التراث الأدبي وفيها شعبة للترجمة وأخرى للأدب ( الدليل الثقافي ص 23 ) .

(2) المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات (بيت الحكمة) وقد احدثت بقانون رقم 90 مؤرخ في 20 ديسمبر 1982 . وهي ( مؤسسة عمومية ذات صبغة ثقافية مكلفة بالقيام بكل أعمال التفكير والدرس والابتكار المتعلقة بميدان الأدب والعلوم والفنون وبكل المهام التي يقتضيها العمل الثقافي والفني ) .

ونص قانونها على ان من مهماتها ( المشاركة في صيانة التراث واثرائه وإبرازه (الدليل الثقافي ص 41). وقد نشرت هذه المؤسسة بعض الكتب التراثية كان منها « كشف القناع عن تضمين الصناع » لأبي علي الحسن بن رحال المعداني.التدلاوي حافظ المذهب المالكي في هذه الربوع المغربية المعطاء في النصف الأول من القرن الثاني عشر ، اذ توفي سنة 1140 ، بمكناس ، وحلاه تلميذه العُميري بـ ( العلامة النظار المشارك ) .

وهذا الكتاب الذي نشر سنة 1986 بتونس صدرت به ( بيت الحكمة ) سلسلة إحياء التراث الاسلامي ، وبذلك أضافت لبنة اخرى في تشييد العلاقات الثقافية بين جناحي مغربنا العربي .

(3) دار الكتب الوطنية بالعاصمة ، وهي التي آلت اليها مخطوطات الزوايا والمساجد ومكتبات الدولة ، لتتولى المحافظة عليها وعلى سائر المخطوطات التي جمعتها والتي اقتنتها ، والتي أهديت إليها ، كما نص على ذلك الفصل الأول من الأمر عدد 296 لسنة 1967 ، الصادر في 7 سبتمبر سنة 1967 .

وتوجد بهذه الدار الآن ورشة لصيانة المخطوطات تظم خمسة أعوان على رأسهم رئيس القسم وهو حاصل على شهائد في التسفير الصناعي والتسفير التقليدي اليدوي والتذهيب والتزويق ، متخرج من معهد «استيان» في باريس بعد دراسة ست سنوات وتربص في المكتبة الوطنية بباريس دام ستة أشهر من سنة 1970 ، وبعض أعوانه حاصل على شهادة التسفير من تونس وقضى تربصا في رومة وستتواصل تربصات هؤلاء الأعوان في رومة وفي بروكسال ، في نطاق التعاون الفني

بين تونس والبلدان التي يقصدها المتربصون .

وهذا القسم المختص بالصيانة يمد مساعدته الى بعض المؤسسات الجامعية بتونس ومصالح التوثيق ، ويتيح فرص التربص لخريجي مركز الصناعات ( اختصاص التسفير) ولمن ارسلوا الى السعودية في نطاق التعاون الفني المتصل بهذا الاختصاص .

ويجري في هذا القسم ترميم المخطوط بإصلاحه ، ورقة بعد اخرى ، ثم تقع خياطته وتجليده بواسطة المنضغط مع استعمال الجلد الحقيقي لتعويض الجلد القديم ، وأحيانا يصلح الجلد القديم اذا كانت حالته تسمح بذلك ، وبعض المواد المستعملة من صنع محلي ، لعدم توفر كل المواد الضرورية في كل وقت مثل اللصق النباتي النادر بتونس .

وسوف تقع عملية رفع الحامض من ورق المخطوط بالمواد الكمياوية وبالغاز في بيت حديدي ، بعد توجيه متربصين الى فرنسا ، وبعد ان تفتح البناية الجديدة لدار الكتب الوطنية أبوابها ، إذ هي الآن في طور التجهيز ، وسيخصص بها طابق للصيانة والزخرفة يعمل بوسائل وآلات متطورة .

إن ميدان الصيانة شاسع ، وقد تطورت الوسائل والطرق في معالجة أمراض المخطوطات القديمة ، وفي المواد التي تستعمل للترميم ، وحاجتنا اليوم الى توفير هذه الطرق والمواد وتكوين المختصين حاجة أكيدة ، لانقاذ ثروتنا التراثية ، وهذا القسم المهتم بالصيانة تكون سنة 1970 ، وبدأ نشاطه سنة 1971 باعانة دول صديقة أهدت بعض الآلات .

وعدد الكتب التي ينجز القسم ترميمها في السنة حوالي مائتين ، يتم انقاذها مع محاولة المحافظة على طابعها الأصلي ، ومع استعمال الذهب البندقي في زخرفتها .

ويجد زائر هذا القسم دفترا يشتمل على صور نماذج من الكتب التي وقع ترميم في حالتها القديمة قبل الاصلاح وفي حالتها الجديدة بعده ، مع معلومات موجزة عن الكتاب .

ومن أهم الكتب التي لقيت هذه العناية نسخة فريدة ثمينة من « المنصوري في البيزرة » رقمها 15072 وأوراقها 178 .

وهي نسخة الأمير محمد بن يحيى بن عبد الواحد الحفصي المستنصر بالله المتوفي سنة 675 هـ ـ 1277 م ألّف هذا الكتاب للأمير المذكور طبيبه احمد الحشا وتاريخ النسخة سنة 645 هـ ـ 1247 م وخطها مغربي ، والعناوين مذهبة وبأعلى الورقة الأولى بقية خط هذا

هذا وان مستودع المخطوطات بدار الكتب مكيف بدرجة حرارة من 22 إلى 24 وبدرجة رطوبة من 40 الى 60 .

---

(1) التعريف بابن خلدون : 21 .

(2) المقدمة : 406 ـ 407 ط دار المصحف ، مصر .

(3) أسهمت في تحقيق فهرس ابن عطية الأندلسي ، نشرته دار الغرب الاسلامي ببيروت في طبعتين .

وحققت برنامج المجاري الاندلسي ، نشرته دار الغرب الاسلامي .

(4) حققت رحلة ابي الحسن علي القلصادي الاندلسي ونشرتها الشركة التونسية للتوزيع في طبعتين .

(5) منه نسخة بالخزانة العامة بالرباط ، أول مجموع رقمه 1578 .

(6) ترجمته في : شجرة النور الزكية للشيخ مخلوف : 247 .

(7) نشرته دار الغرب الاسلامي ببيروت في ثلاثة اجزاء بتحقيق احسان عباس سنة 1982 .

(8) العقد الثمين للتقي الفاسي : 82/2 ـ 83 .

(9) المصدر نفسه : 84/2 ـ 85 .

(10) القابسي أيضا كان مولعا بضبط كتبه ومقابلتها ، رغم انه كان بصيرا لا يرى .

(11) ترتيب المدارك ، للقاضي عياض : 340/3 ـ 341 .

(12) رحلة العبدري : 65 ـ تحقيق محمد الفاسي ط . الرباط 1968 . وقد وصف الباحث المؤرخ البهلي النيال المصاحف والكتب المحبسة على مكتبة عقبة في كتابه ( المكتبة الاثرية بالقيروان ) تونس 1963 .

(13) اهد الشيخ طراد هذه الفهرسة من سنة 1930 الى سنة 1937 ولم تشمل كل ما في المكتبة من الأوراق والوثائق ، كما ذكر النيال في مقاله ( المكتبة العتيقة ) المنشور بمجلة الندوة ، السنة الاولى العدد 2 فيفري سنة 1953 .

وتحتفظ دار الكتب بمصر بصورة على المكر فلم من هذه الفهرسة برقم 4391 . وقد أمدنا الاستاذ المنجي ابن الشيخ محمد طراد بصورة منها مشكورا .

(14) فهرست المكتبة العتيقة بجامع عقبة للشيخ طراد : الورقة . 44 و 46 .

(15) المرجع نفسه : الورقة 38 .

(16) صفحات من تاريخ تونس : 304 ـ 305 .

(17) برنامج المكتبة العبدلية ، ج 1 ص : خ ـ د .

18 ـ هذه المعلومات عن المكتبة الوطنية من تقرير لابن عزونة الملحق بالادارة العامة للمكتبة المذكورة وهو مرقون بالفرنسية في هذه المكتبة .

(19) سنذكر ان هذه المكتبة القيروانية عادت الى القيروان وأودعت بمركز دراسة الحضارة الاسلامية .

(20) كان المتحف يظم مخطوطات وادرة من مكتبات أسر صفاقسية لعل أهمها مكتبة الشيخ أبي الحسن علي النوري الصفاقسي ، وهو فقيه مقرىء فلكي ولد بصفاقس سنة 1053 هـ ونشأ بها وأخذ العلم بها ، ثم رحل الى مصر فأخذ عن علماء الأزهر ورجع سنة 1078 هـ فاتخذ من داره مدرسة لتعليم الطلبة واسكان الغرباء منهم ؛ وله مؤلفات في القراءات والفقه والتوحيد والفلك واكتشاف لدواء الكلب سبق به باستور ، توفي سنة 1118 . وكان جماعا للكتب ، قال عنه معاصره المؤرخ الوزير السراج : ( ما أعلم احدا اليوم جمع ما جمع هو بحيث أطلق يد شركائه في بر المشرق مهما رأوا كتابا بلغت الكراسة منه اربعة نواصر يأخذونه ولو مكررا فيمسك المرر من الكتابين ) .

الحلل السندسية 3/125 ط . دار الغرب الاسلامي بيروت ) .

(21) هو فقيه مدرس ، ولي رئاسة محكمة التعقيب بتونس ، وكان مولعا باقتناء المخطوطات .

(22) الجنرال محمد بلخوجة بحانة ، كان مستشارا للحكومة التونسية في عهد الحماية ، وله خزانة كتب هامة بها كثير من الكناشات لعلماء تونسيين .
( خزائن الكتب العربية في الخافقين : 1/356 ) .

(23) عبد الوهاب لقبه العائلي ، نسبة الى جده عبد الوهاب بن يوسف الصمادحي التجيبي ، ولد سنة 1884 بتونس وتعلم بها وبالمهدية ، وتخرج من مدرسة العلوم السياسية بباريس درس بمعاهد عليا بتونس ، وولي وظائف سياسية ، وشارك في مؤتمرات علمية وله مؤلفات في التاريخ ، وحقق كتبا وأنجز بحوثا بالعربية والفرنسية ، توفي بتونس سنة 1968 .

(24) من المكتبات المباعة في الاسواق مكتبات عائلات : زروق والأصرم وبوراس .

(25) من المكتبات التي اشترتها زيادة على ما أسلفنا ذكره مكتبة شيخنا احمد الجريدي الذي كان جماعا للكتب باذلا في سبيل استنساخها .

(26) الشيخ محمد الجودي كان مفتيا بالقيروان ، كان له الاعتناء باقتناء نفائس المخطوطات ونسخها . ذكرت مكتبته ضمن مكتبات القيروان في كتاب ( خزائن الكتب العربية في الخافقين : 1/361 ) .

(27) أسرة عظوم العلمية ، لاعلامها مؤلفات فقهية وبمكتبتها مخطوطات هامة وصفها بدقة المستعربان : هوداس وباسة في فهرس نشراه سنة 1884 في 18 ص بالجزء الثاني من Bulletin de corres pond-Africaine) .
( خزائن الكتب العربية في الخافقين : 1/361 ) ..

(28) ترجم للشيخ بوعتور ترجمة ضافية المؤرخ محمد بن الخوجة في كتاب : ( صفحات من تاريخ تونس : 419 ـ 453 ) .

(29) كان الشيخ الصادق النيفر من أشهر أصحاب المكتبات الخاصة بتونس وتعد مكتبته فريدة من نوعها كما جاء في (خزائن الكتب العربية في الخافقين 1/356 ) .